

## المنهج التربوي في طريقة القاسمي الخلوتية الجامعة

خالد محمود

تلخيص:

طريقة القاسمي الخلوتية الجامعة هي إحدى الطرق الصوفية السنية في البلاد، وتتخذ من الكتاب والسنة مرجعاً وشعاراً لها، وقد كان لهذه الطريقة دورٌ كبير في نشر العلم والمعرفة وتربية السالكين، وقد سلط الباحث الضوء على المنهج التربوي الذي تسير عليه هذه الطريقة في تربيتها للمريدين، وعرض لوسائلها وطرقها في العملية التربوية وربط ذلك كله في الأدلة الشرعية من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

تمهيد:

يمكننا أن نعرف المنهج بشكل عام بأنه "الترتيب الصائب للعمليات العقلية التي نقوم بها بصد الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها" (داود 13)

أما التربية فمعناها "إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام أو تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً" (العناني 11-12).

المنهج الصوفي: هو المنهج الذوقي الذي يقوم على المجاهدة للنفس والتربية التي وصفها الشيوخ لمريديهم تدريباً على إنكار الذات إنكاراً تاماً للوصول بالأعمال كلها إلى المحبوب سبحانه وتعالى (داود 13)

التربية الأخلاقية: استبدال الحال المذمومة بالحال المحمودة (داود 39).

طريقة القاسمي الخلوتية الجامعة في سطور:

سميت طريقة القاسمي الخلوتية الجامعة بهذا الاسم لسببين:

أولاً: نسبة إلى مشايخها من آل الخلوتي.

ثانياً: نسبة إلى مشايخها من آل القاسمي.

وسميت بالجامعة لأنها جمعت بين عدة طرق .

دخلت هذه الطريقة إلى هذه البلاد عن طريق سيدنا الشيخ محمود الرفاعي الطرابلسي الذي تتلمذ على يد سيدنا الشيخ احمد الصاوي في الأزهر وأخذ عنه الطريقة وكان يقول في حقه ربيت ولدي محمود لبر الشام حيث كان من عادة سيدنا الشيخ الرفاعي زيارة سواحل الشام في المواسم الدينية

وأدى ذلك إلى انتشار مبادئ الخلوتية في اللاذقية وعكا والخليل والقدس، وفي إحدى الزيارات منح الطريق لسيدنا الشيخ عبد الرحمن الشريف الحسيني الخليلي وأجازه بالإرشاد. بعد وفاة سيدنا الشيخ عبد الرحمن الشريف عام (1887م) تسلم المشيخة سيدنا الشيخ حسن عمرو أحد أبناء مدينة دورا - الخليل واستمر حتى عام (1919م). ثم تسلم الإرشاد سيدنا الشيخ خير الدين الشريف بين عامي (1919 - 1926م). ثم تسلم الإرشاد سيدنا الشيخ حسني الدين القاسمي (ت 1944م) وكان قد تلقى العهد عن سيدنا الشيخ حسن عمرو وأجازه بالطريقة، ويعتبر عصره العصر الذهبي للطريقة، حيث امتدت من الخليل إلى شمال البلاد وجنوبها. ثم تسلم الإرشاد سيدنا الشيخ عبد الحي القاسمي (ت 1962م): الذي هاجر إلى اربد بعد أحداث عام 1948م ثم تسلم الإرشاد سيدنا الشيخ ياسين القاسمي (ت 1986) وفي عهده أخذت الطريقة ترتقي بفعاليتها ونشاطاتها الدينية والتربوية لخدمة الإسلام والمسلمين، حيث تم إنشاء مكتبة أكاديمية القاسمي والتي تعد الأولى في الوسط العربي. ثم تسلم الإرشاد سيدنا الشيخ محمد جميل القاسمي (ت 1988): وفي عهده تم تأسيس كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في باقة الغربية عام 1988م. ثم تسلم الإرشاد سيدنا الشيخ عفيف القاسمي (ت 1998م): حيث تم في عهده افتتاح كلية الشريعة والدراسات الإسلامية عام 1989م، والاعتراف بها مما ساهم في انتشار اسم الطريقة انتشاراً واسعاً. وافتتاح روضات رياض الصالحين النموذجية. ثم تسلم الإرشاد سيدنا الشيخ عبد الرؤوف القاسمي (أطال الله في عمره) عام (1998م)، وفي عهده تم الحصول على الاعتراف الرسمي للكلية "أكاديمية" تمنح اللقب الأول في التدريس (شهادة الـ B.Ed.)، ثم تم الحصول على الاعتراف الرسمي بالأكاديمية "أكاديمية" مستقلة، وعمل على توسيع الأكاديمية بمساحة قدرها 6500 متراً مربعاً، ثم تم افتتاح الكلية التكنولوجية في عام (2004م) في حرم أكاديمية القاسمي والتي حصلت على اعتراف وزارة الصناعة والتجارة بثلاثة تخصصات للعام الدراسي (2005م)، كما تم افتتاح المجمع الثقافي في عام (2002م)، الذي يربى الكثير من الفعاليات والنشاطات اللامنهجية ويضم الكثير من المشاريع التعليمية

والتربوية السنوية ذات النفع العام على مختلف المراحل العمرية، ومن أهم هذه المشاريع: مخيم القاسمي ومشروع الموهوبين القطري في الرياضيات والذان يقامان للعام الثالث على التوالي، يمكن التوسع بمراجعة نشرة أضواء على طريقة القاسمي الخلوتية الجامعة. (القاسمي 4-7)

### مراحل التربية عند الصوفية

يرى شيوخنا في الطريقة أن طريق الوصول إلى الله تعالى أي إلى رضوانه عند الصوفية تمر عبر مرحلتين لا بد من قطعهما حتى يرتقي المريد ويصل إلى رضا المولى سبحانه وتعالى .

**أولهما: التخليّة:** وفيها يتخلى المريد عن كل ما يهبط بالنفس ويجذبها إلى مستوى الأهواء الدنيا من لذات وآلام وشورر أي لا بد من تخليص النفس من الصفات الذميمة حتى تصل إلى مراتب السمو والكمال .

**ثانيها: التحلية:** وفيها يتحلى بالأخلاق الحسنة والفضائل الروحية التي ترتقي بالنفس إلى أعلى مراتبها (داود 13)

يقول سيدنا الجنيد رحمه الله تعالى: "التصوف تصفية القلب من موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الشريعة" (داود 14).

ويمكننا أن نخلص إلى أن قواعد التربية عند الصوفية ومنها طريقة القاسمي الخلوتية الجامعة هي:

1. معرفة المعبود. 2. الرضا بالموجود. 3. الوقوف على الحدود. 4. الوفاء بالمعهود. 5. الصبر على المفقود. (داود 23)

### وسائل وطرق تربية النفوس في طريقة القاسمي الخلوتية الجامعة

إن الطرق المستعملة لتربية النفوس في هذه الطريقة ما هي إلا خلاصة فهم أصحاب هذا المنهج لكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي التطبيق العملي للكتاب والسنة.

ومدار هذه الطرق على تنقية القلب من الأدران تأكيدا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم " إلا وان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب (البخاري 105/1).

والخلاصة أن هذه الطريق لعلاج القلب مما يصيبه من أمراض، ولتقويته حتى لا يتعرض للمرض (البلاي 47)

أما أهم هذه الطرق فهي:

## 1. الخوف من الله تعالى ونهي النفس عن الهوى .

يقول الله تعالى: "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى" (40-41/النازعات)، قال مجاهد في معنى هذه الآية هو خوفه في الدنيا من الله عز وجل عند مواجهة الذنب فيقلع ونهى النفس عن الهوى: زجرها عن المعاصي والمحارم (القرطبي 207/19)

ولا شك أن الخوف من الله تعالى هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمامها (البلاي 50) يقول الشيخ احمد زروق رحمه الله تعالى " من بواعث العمل وجود الخشية وهي تعظيم يصاحبه مهابة والخوف وانزعاج القلب من انتقام الرب" (زروق، 109).

وقد قسم ابن عجيبة الحسن بن رحمه الله تعالى الخائفين إلى أصناف ثلاثة:

- أ. خوف العامة من العقاب وفوت الثواب .
  - ب. خوف الخاصة من العتاب وفوات الاقتراب .
  - ج. خوف خاصة الخاصة من الاحتجاب بعروض سوء الأدب.
- (عيسى 297) وراجع بتوسع (السمرقندي 417/2) وما بعدها.

## 2. التوكل على الله تعالى .

يقول الله تعالى "وعلى الله فليتوكل المؤمنون" (11/ إبراهيم). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا وتروح بطانا" (ابن حنبل 52/1) والحديث حسن صحيح (الترمذي 574/4).

التوكل وتفويض الأمر لله تعالى وذلك باستيقان قدرته على قضاء الأمور من بذل الأسباب لقضاء هذه الحاجات والتخلي عن التعلق بهذه الأسباب والتعلق برب الأسباب.

والتوكل يعتبر من أعلى المراتب لان قلوب المؤمنين معتمدة عليه مطمئنة به وقد أشار الشيخ حاتم الأصم إلى الأسس الأخلاقية التي يقوم عليها التوكل بقوله: " علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت به نفسي، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فأنا مشغول به وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره وعلمت أنني لا أخلو من عين الله تعالى حيث كنت فأنا استحي منه" (إبراهيم 138/2، البلالي 56، 59 بتصرف، عيسى 380 والقاسمي 40)

### 3. محاسبة النفس.

إن المدخل لمحاسبة النفس هو اتهامها قبل اتهام الآخرين قال احمد بن أبي الحواري لأبي سليمان الداراني: "إن فلان وفلان لا يقنعان على قلبي فقال سليمان: ولا على قلبي ولكن لعلنا أتينا من قلبي وقلبك فليس فينا خير وليس نحب الصالحين" (ابن الجوزي 339/2).

ومحاسبة النفس أنواع منها المحاسبة المتقطعة على فترات متباعدة ومنها ما يعقب الخطأ الفادح ومنها المحاسبة الآنية وهي أفضلها وقد تكون المحاسبة حتى على الطاعات إذا خيف أن تولد في النفس الغرور والعجب...

وقد تكون المحاسبة للنفس عن طريق التصور أو التمثيل للنفس أنها مرة في الجنة ومرة في النار يقول إبراهيم التيمي: " مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبقارها ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها... فقلت لنفسي: أي نفسي أي شيء تريد؟ قالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا قلت فأنت في الأمنية فاعلمي". (البلالي 59-62 باختصار، عيسى 290 وما بعدها)

والخلاصة أن المحاسبة تثمر الشعور بالمسؤولية تجاه الله تعالى وتجاه خلقه وتجاه النفس المكلفة وبالمحاسبة يفهم الإنسان أنه لا بد راجع إلى الله تعالى (عيسى 291-92) وراجع بتوسع هذا الموضوع في (المحاسبى 45 وما بعدها).

### 4. الإكثار من القرب والعبادات والأذكار.

إن الهدف من العبادة بشكل عام هو ربط الإنسان بخالقه والتعرف عليه وتعديل سلوكه وغرس معاني الخير والفضيلة فيه حتى تصبح سجية لديه "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر"

(45/العنكبوت) وبقدر ما يكون الإنسان عابدا لربه قريبا منه بقدر ما يكون بعيدا عن المعاصي والآثام .

وقد كان من شأن السلف الصالح الإكثار من التعبد والذكر فهم في زيادة مستمرة يرفضون حتى البقاء على مستوى واحد من العبادة قال الداراني: من كان يومه مثل أمسه فهو في نقصان (ابن الجوزي 338/2)

وطريقة القاسمي أخذت أتباعها بهذا المنهج فهناك أوراد وأذكار بين المغرب والعشاء: ورد الدرة وورد اللطيف، وورد تحفة الإخلاص، وهناك ورد القرآن الليلي بعد صلاة العشاء وهناك ورد السحر للشيخ مصطفى البكري قبل الفجر وهناك أوراد بعد صلاة الفجر ويوجد أيضا ورد السبحة اليومي صباحا ومساءً " مئة مرة استغفار، مئة مرة صلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، مئة مرة لا اله إلا الله " .

وهناك إحياء المناسبات الدينية في العبادة والذكر كليلة القدر وليلة النصف من شعبان وصيام عاشوراء ...

وذكر الله تعالى علامة الفلاح والرقى وهو من أعظم القربات عند الله وليس له حد معلوم " اذكروا الله ذكرا كثيرا" (41/ الأحزاب) وهو عامل مهم في اطمئنان النفس "ألا بذكر الله تطمأن القلوب" (28/ الرعد) (القاسمي 34، 64-86 باختصار) كما أن الصيام عامل مهم في تهذيب النفس وتخليصها من رعوناتها.

## 5. التدريب على التفكير والتدبير.

قال الله تعالى: "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب..." (190/آل عمران).

تشير هذه الآية إلى فضل التفكير في المخلوقات ومدح الله تعالى من يقوم بهذه العبادة ويستدل بها على صفات الخالق سبحانه وتعالى كعلمه وقدرته ...

وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على التفكير في خلق الله لقوله: "تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فأنكم لن تقدروه قدره" (الألباني 395/4، الهيتمي 81/1).

وقد جعل السلف الصالح قراءة القرآن بالتدبر والتفكر من ضمن أدوية عدة لصالح القلب قال يحيى بن معاذ الرازي: "دواء القلب في خمسة: قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن، وقيام الليل والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين" (ابن الجوزي 256/2).

وقال أبو الدرداء: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة إلى الصباح"، وقال الجنيد: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد ( غرة 83، 89، المقدسي 378).

والخلاصة أن الغرض الأسمى من التفكير هو تحصيل العلم في القلب لأنه يوجب حالا وفعلا بهما صلاح المرء ونجاته وهما من ثمرات العلم، والعلم ثمرة الفكر. (القاسمي 36). انظر بتوسع (ابن قدامة 378 وما بعدها، الغزالي 386/4).

#### 6. الصحبة الطيبة الصالحة.

الصحبة لها أثر كبير في شخصية الإنسان وأخلاقه والصاحب يكتسب صفات صاحبه بالتأثر الروحي والافتداء العملي فإذا اختار الإنسان صحبة الصالحين فلا بد أن يتأثر بهم فيقتبس من أنوارهم ويتحرر من عيوب نفسه وما نال الصحابة رضوان الله عليهم ما نالوه إلا بشرف صحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومجالستهم له .

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم وراثا من العلماء الربانيين العارفين بالله تعالى وهم خلفاؤه في الهداية والإرشاد فمن جالسهم سرى إليه من حالهم الذي اقتبسوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن العلماء ورثة الأنبياء" (ابن ماجه 81/1)

إن الطريق العملي لتزكية النفس هو صحبة الوارث المحمدي الذي تزداد بصحبته إيمانا وتقوى وتشفى بملازمته ومجالسته من أمراض القلبية لان الإنسان لا يستطيع وحده أن يعالج أمراض قلبه إذ لا بد من طبيب حاذق يصف لكل داء دواؤه ( عيسى 41-48) باختصار .

وهناك آيات وأحاديث كثيرة تدل على أهمية الصحبة كقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين. (119/ التوبة) وكقوله عليه الصلاة والسلام لما سئل أي جلسائنا خير؟ قال: من ذكركم الله رؤيته وزاد في عملكم منطقته وذكركم في الآخرة عمله (الهيثمي 226/10)، رجاله رجال الصحيح.

قال بعض العارفين في الشيخ الذي تصاحب:

ليس شيخك من للعهد أعطاك      إنما شيخك من في بحر الهداية القاك  
ليس شيخك من لا ينفعلك وعظه      إنما شيخك من وفقك لحظه  
ليس شيخك من قال أنا      إنما شيخك من أنقذك من العنا

(القاسمي 52)

وقال الداراني: إنما الأخ الذي تعظك رؤيته قبل أن يعظك بكلامه (ابن الجوزي 336/2).

#### 7. الصمت:

قال الله تعالى: " قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون" (1-3/ المؤمنون).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فأن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وان ابعده الناس من الله تعالى القلب القاسي" حديث حسن غريب (الترمذي 607/4 حديث رقم 2411).

الأصل في موضوع اللسان أن يحفظه الإنسان من دائرتي الإثم واللغو وان يستعمله في دائرة الخير ومقدمة ذلك تعويد الإنسان نفسه على الصمت ثم يتدرج مع نفسه حتى تعتاد على الكلام المنضبط قال الشيخ سيدنا مصطفى البكري: على المبتدئ أن يصمت بلسانه عن لغو الحديث وبقلبه عن جميع الخواطر في شيء من الأشياء فأن من صمت لسانه وقلبه انكشفت له الأسرار وجلبت عليه المعارف والأذكار . (القاسمي 33 بتصريف) .

ونختم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لولا تمزج قلوبكم لسمعتم ما أسمع". (ابن حجر 32/6) راجع بتوسع (المكي 136 وما بعدها، القشيري 119 وما بعدها).

#### 8. الخلوة:

الخلوة هي انقطاع عن البشر لفترة محدودة وترك الأعمال الدنيوية لمدة يسيرة كي يتفرغ القلب من هموم الدنيا ثم ذكر الله تعالى بقلب خاشع حاضر وتفكر في آلاء الله وذلك بإرشاد شيخ عارف يعلمه إذا جهل ويذكره إذا غفل ويساعده على دفع الخواطر والهواجس فلا خير في عزلة لا فكر فيها ولا خير في فكرة لا دليل عليها ( عيسى 242، القاسمي 29) وقال الإمام الزاهدي: "عجبا من الناس كيف تركوا الاعتكاف ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل الشيء ويتركه وما ترك الاعتكاف حتى قبض" (الطحاوي 577).



وقال الإمام النووي معلقاً على حديث عائشة رضي الله عنها "تم حبيب إليه الخلاء" أما الخلاء فهو الخلوة وهي شأن الصالحين وعباد الله العارفين ... قال الداراني: "حببت إليه العزلة صلى الله عليه وسلم لان معها فراغ القلب، وهي معينة على التفكير، وبها ينقطع عن مألوفات البشر ويتخشع قلبه" (النووي 198/2) .

اما فوائد الخلوة فكثيرة منها:

- السلامة من آفات اللسان
- السلامة من آفات النظر
- صون القلب عن الرياء والمداهنة ...
- السلامة من صحبة الأشرار
- التفرغ للعبادة والأذكار والتفكير والاعتبار
- وجدان حلاوة الطاعات ولذة المناجاة
- راحة القلب والبدن

(القاسمي 31-32 باختصار، عيسى 252-268، غرة 49-51) وراجع بتوسع (القشيري 101 وما بعدها).

#### ببليوغرافيا

- 1) إبراهيم، احمد حسين. تاج العارفين. ط 1. 1416هـ.
- 2) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. صفة الصفوة. ط 1. المنصورة: مكتبة الإمام، 1419هـ.
- 3) ابن حجر، احمد بن علي. أطراف المسند المعتلي. ط 1. دمشق: دار ابن كثير، 1419هـ.
- 4) ابن حنبل، احمد بن محمد. المسند. ط 2. بيروت: دار الفكر والمكتب الإسلامي للطباعة والنشر، 1398هـ .

- 5) ابن زروق، احمد بن احمد. قواعد التصوف. القاهرة: الناشر المكتبة الأزهرية، 1419هـ.
- 6) ابن قدامة، احمد بن عبد الرحمن. مختصر منهاج القاصدين. د.م: دار الإيمان، 1398هـ.
- 7) أبو طالب المكي، محمد بن علي. قوت القلوب. د.م: دار الفكر. د.ت.
- 8) الألباني، محمد ناصر الدين. السلسلة الصحيحة. الرياض: مكتبة المعارف. 1415هـ.
- 9) البخاري، محمد ابن إسماعيل. الجامع الصحيح. ط4. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- 10) البلالي، عبد الحميد. منهج التابعين في تربية النفوس. ط3. بيروت: دار ابن حزم، 1418هـ.
- 11) الترمذي، محمد بن عيسى. الجامع الصحيح. دار إحياء التراث العربي. د.ت.
- 12) داود، عبد الباري محمد. المنهج التربوي والعلمي عند الصوفية. دار الثقافة. د.ت.
- 13) السمرقندي، نصر بن محمد. تنبيه الغافلين. ط3. جدة: دار الشروق، 1407هـ.
- 14) الطحطاوي، احمد بن محمد. حاشية مرآة الفلاح. ط2. مكتبة مصطفى الحلبي، 1389هـ.
- 15) العناني، حنان عبد الحميد. تربية الطفل في الإسلام. ط2. عمان: دار صفاء، 2004م.
- 16) عيسى، عبد القادر. حقائق عن التصوف. ط4. عمان: المطبعة الوطنية، د.ت.
- 17) غرة، محمد صالح. رسائل الفضائل الربانية. طبع على نفقة سيدنا الشيخ محمد جميل القاسمي رحمه الله، د.ت.
- 18) الغزالي، محمد بن محمد. إحياء علوم الدين. القاهرة: دار البيان العربي، د.ت.
- 19) القرطبي، محمد بن احمد. الجامع لأحكام القرآن. د.م: دن، د.ت.
- 20) القشيري، عبد الكريم بن هوازن. الرسالة القشيرية. ط1. دمشق: دار الخير، 1408هـ.
- 21) المحاسبي، الحارث بن أسد. الرعاية لحقوق الله. ط4. بيروت: دار الكتب العلمية، 1405هـ.